الشخصية المركزية في الرحلة العلمية
بين سلطان الأنا و صورة الآخر
فتح الإله و منته لأبي راس الجزائري نموذجا

د/ الطاهر حسيني
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

ملخص:

الرحلة فن من الفنون السردية تتحرك داخلها شخصيات تتفاوت أهميتها وقيمتها بالنسبة للسرد والأحداث فيها ورغم واقعية هذه الشخصيات إلا أن الدراسات الحديثة أصبحت تنظر إليها بمنظار فني يدعم ما يعرف اليوم عند النقاد أدبية الرحلة من هنا يأتي هذا المقال ليقف عند تمظهرات الأنا وتجليات صورة الآخر من خلال الشخصية المركزية في الرحلة العلمية انطلاقا من فتح الإله ومنته لأبي راس الجزائري.

Abstract:

Peregrination is one of the prose arts in which some personages move upon their importance and value with reference to narrative and events. And though the realistic side of these personages, modern studies deal with them by an aesthetic view which supports what is known at critics as " the literary of peregrination ". From this point this article aims to show the different figures of self characters and the Image of the other through studying the main personage in the scientific Peregrination from " FATH AL ILAH" to ABOURASSALJAZAIRI.

من الطبيعي أن تكون الشخصية إحدى الدعائم الأساسية التي تبنى عليها الرحلة بمختلف أنواعها، ذلك أن الرحلة كما نعلم تهيمن عليها بنية السفر وللسفر على أرض الواقع لا بد من فاعل ينجزه وعلى هذا الأساس تصبح الرحلة هي حكاية تنقل شخص في الفضاء المكاني، من نقطة معلومة إلى نقطة أخرى محددة ، ويصبح الرحالة القائم بفعل الرحلة بجسده كشخص واقعي معروف باسمه ونسبه،وموسوم بصفته ، هو ذاته الشخصية المنقولة لنا عن طريق اللغة بعد تلفيظ فعل الرحلة ونقلها إلى نص، يأخذ مشروعية الاهتمام به بعد أن يصبح قابلا للنعت بصفة " الأدبي " ، وتلعب شخصية الرحالة في الرحلة ، مهما كان نوعها ، الدور الأبرز ؛ فهي تعبر فيما تقول وتفعل عن الذات أولا ، وتنقل صورة المكان و الآخر وما يتعلق بهما ثانيا .

الأمر في <<فتح الله و منته >> يتعلق بصاحب الرحلة أبي راس ، الذي هو نفسه مؤلفها ، و هو كذلك سارد أحداثها،و تلك ميزة من مميزات فن الرحلة ؛ والرحلة كما هو معلوم من أهم خصائصها أنها تتميز،عادة ،بالتطابق بين السارد و الكاتب (المؤلف) .

و الملفت للانتباه في الشخصية المركزية في رحلة أبي راس ، أنها أعلنت عن نفسها مبكرا ، و ذلك بتوظيف الضمير الدال على الذات مع أول بواباتها ، أعني بذلك ضمير المتكلم الذي أعلن عنه العنوان ، ليمثل بذلك ميثاقا بين المؤلف والقارئ ، يتم بموجبه الاتفاق على أن من دل عليه الضمير في العنوان ، هو نفسه المؤلف الموجود باسمه على صفحة الواجهة ، و هو نفسه كذلك من يشير إليه الضمير ذاته داخل المتن ،كشخصية أخذت مركزيتها، من سيطرتها على مساحة القول ،وسيطرتها كذلك على غيرها من الشخصيات والمسارات .

و على هذا الأساس يصبح القارئ متفاعلا مع النص قريبا منه ؛ ذلك أن << ضمير المتكلم يقرب القارئ من العمل السردي ، ويجعله أكثر التصاقا به ، موهما إياه أن المؤلف فعلا هو إحدى الشخصيات التي نهض عليها النص الحكائي >> [1]. وقد أضفى هذا الضمير من جهة أخرى على الرحلة << بعض خصائص فن السيرة الذاتية ، من خلال الصوغ الذاتي للتجربة ،تجربة الارتحال ،مما يدفع بالذات أن تلعب دورا مركزيا في تنظيم الوقائع، وتأطير الأحداث ،وملء الثغرات، بإضافة معرفية أو بنيات حكائية صغرى >> [2]. و هذا يعني أن الفنين يتداخلان مع بعضهما، و تلك حقيقة لا يختلف فيها اثنان؛ فالرحلة ما هي إلا صفحة من صفحات حياة الرحالة الذاتية ،و قد وجدنا فعلا بعض الباحثين يعتبرون "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" من إرهاصات السيرة الذاتية [3] رغم أن المتعارف عليه أن هذا الكتاب هو رحلة قام بها رفاعة الطهطاوي إلى باريس .

و المتتبع لهذه الرحلة يلاحظ ، بلا شك ، أن الشخصية المركزية استعملت في السرد كما في الحوار، ضمير المتكلم سواء بصيغة المفرد أو بصيغة الجمع ، رغبة منها في أن ترسم صورة تبرز من خلالها تميزها و تفوقها الذاتي ، وقد كان استعمال هذا الضمير استعمالا مفرطا ، إلى الحد الذي بدت فيه كأنها تعاني من عقدة التميز، والانبهار بالذات و الإعجاب بها .

و هذا الإحساس موجود فعلا عند هذه الشخصية ، ولم يفارقها لحظة على امتداد الرحلة ، و قد انعكس ذلك بوضوح على خواطرها ، وأفكارها ، وتصوراتها ، و حتى على سلوكاتها مع الآخرين ، فقد وجدناه يضع نفسه دوما في مقام الموجه للفقهاء، و المصحح للعلماء حتى أنه يحكم على ما يكتبون بطريقة مباشرة، فحين سئل في مصر عن التكوين قال : << فأجبت في أن المصنف و هو الشيخ السنوسي أخل بها في كتبه الخمسة غاية الإخلال . و ها أنا – إن شاء الله – أبين لحنها و فحواها ، و أقدم كلاما بين يدي نجواها ... >> [4] و يمكن الوقوف على مظاهر تضخم الأنا في الشخصية المركزية - التي هي نفسها شخصية المؤلف والسارد - من خلال بعض ما جاء في تفاصيل الرحلة من تعابير دالة على ذلك ،كقوله: << و قد طار صيتي بمعرفتي المصنف (مصنف الشيخ خليل) و تحقيقه في المشارق و المغارب . >> [5]. وقوله : << و صار الشيخ يعظمني – على صغري - ... و قامت لي علماء المشرق على ساق...حتى صارت حضرتي في العلوم تدرك في الآفاق ، و تنسيك دروس مصر و الشام و نونس و العراق >> [6].

وعلى مدى محطات الرحلة و صفحاتها ،لم نقف و لا مرة على موقف لم تكن فيه الشخصية المركزية متفوقة ، و صاحبة السبق و الفضل العلمي على الغير ، الذي يصور في كل الأحوال ، في موقف المعجب و المنبهر بقوة شخصيته ، و سعة ثقافته ، و تنوع معارفه . يشهد على ذلك تكرار نمط محدد من الجمل في تعابيره مثل:

_ أظهرني الله عليهم.....ص : 91 .

_ زاد في إكرامي و اعترف بي.....ص : 93 .
_ لقبوني بالحافظ أصدقهم الله في ذلك.....ص : 95 .
_ فاعترفوا بفضلي و صحة قولي.....ص : 104 .
_ و أرمني بمال جليل .....ص : 107.
_ و قد أضهرني الله عليهم في كل ذلك .....ص :116.
_ فأكرموني غاية الإكرام.....ص : 117.

و حتى عندما يضطر إلى الإشارة إلى بعض المواقف التي بدا فيها في موقف حرج ، لا يلبث أن يعود ليؤكد على صحة قوله ، و قوة حفظه ، و غزارة علمه ؛ فقد جاء في حوار و نقاش بينه و بين علماء مصر بالجامع الأعظم، تفاصيل جلسة علمية ، حيث قال : << أحفظ ألفية بن مالك و منظوم البيان ، ما من باب فيهما أو فصل إلا أعرف كم فيه من بيت بديهة ، قالوا : هذا لم نر من يحصيه ، و لا سمعنا به ، و نحن بمدينة العلم الحاوية كل غريب . فشرعوا في امتحاني ، و تزييف مكانتي و مكاني فأخرج أحدهم كتاب الألفية و فتحه من آخره ، فخرج له باب التصغير فقال لي : كم فيه من بيت ؟ فقلت فيه اثنان و عشرون بيتا ، فحسبوه فوجدوه ثلاثة و عشرين ، فصاحوا و ضحكوا ، و أرادوا تزييف نقدي ، و تكذيب ما عندي ، قلت ناولوني الكتاب ، فأخذته و طالعته ، فإذا فيه بيت من جمع التكسير أدخلت فيه سهوا من الكاتب ، و تأملتها ، فإذا في أولها خاء بالحمرة ، لا يدركها إلا المتأمل ، وفي آخرها طاء كذلك إشارة إلى أنها هنا خطأ ، كما هي عادة الطلبة ، فرأوا ذلك و لم تطب أنفسهم ، حتى رأوا تلك البيت بعينها في جمع التكسير ، و زاد عدم إنصافهم حتى طالعوا نسخا عديدة و حسبوا فيها أبيات باب التصغير فلم يجدوا فيه إلا اثنين و عشرين كما قلت فألقوا السلم و اعترفوا لي بالفضل و النبل و صرت عندهم ...لا يشق لي غبار >> [7] .

و ما يؤكد على أن ما قلنا من قبل حاصل ، و يعتبر فعلا سمة من سمات هذه الشخصية، تلك المحاولات الجادة، التي حاول من خلالها أن يبرر هذا الإحساس، و يبحث له عن نماذج عند غيره من العلماء،خاصة أولئك الذين صرح بأنه تأثر بهم، و سار على نهجهم، فقد أورد كثيرا من النماذج التي تحدث فيها أصحابها عن أنفسهم، معبرين عن " الأنا" بضمير المتكلم، من ذلك ما أخبر به عن السيوطي حيث قال: << قال السيوطي: و ألف- و هو في حدود العشرين- و كتب ورقة إلى نائب الشام، يقول فيها : و أنا - اليوم - مجتهد الدنيا على الإطلاق ، و لا يقدر أحد أن يرد علي هذه الكلمة . و قال السيوطي و هو مقبول فيما قال عن نفسه >>[8]. و لكي يرفع الحرج عن نفسه ، و يثبت أن بضيعه هذا هو بعيد عن دائرة تزكية النفس المنهي عنها بقوله تعالى :﴿ **فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾ [9] ألفيناه يضع بين يدي المتلقي، ما يمكن أن يتخذ دليلا على جواز ذلك و استحسانه ،حيث قال:<< و في " الخفاجي" [10]: يحسن من الإنسان الثناء على نفسه، و ذكر فضائله في مواضع استثنوها من هضم النفس وعن علي (ض).قال : إذا أصبت خيرا فحدث به إخوانك .كذلك فعل الشيخ أحمد بابا [11] في" كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج " ، و أطال في ذلك ، و من ذلك قوله فيه: و اشتهرت بين الطلبة بالمهارة ، و في البلدان من سوس الأقصى إلى غير نهاية>>[12].

و لا يتوانى المؤلف أن ينقل ما قيل فيه من مدح و إطراء ، تأكيدا لسمو مكانته ، و استشهادا على أحقيته بأن يفتخر بذاته فقد نقل ما قاله عنه ابن عبد القادر بن السنوسي، ما << نصه : و مما وجد من كلام والدنا ...محي الدين سيدي عبد القادر بن

السنوسي في مدح شرح الفقيه الأديب الإمام الفقهي، النجيب ، النحوي ، البياني ، الأصولي ، المؤرخ ، أبي المآثر و التآليف العديدة ، مولانا أبي الطاهر سيدي محمد **أبي راس الناصري** أمده الله بمنه و كرمه آمين >> [13].

و مثلما وظف النثر، فقد وظف أبو راس كذلك الشعر- كغيره من الرحالين- إلا أن توظيفه له كان توظيفا نفعيا؛ حيث أتى به لخدمة غرض محدد هو خدمة الذات، بإبراز المكانة الكبيرة لشخصه، من خلال انتقاء التقاريض التي قيلت فيه، إشادة بعلمه، و مدحا لخصاله، و تعدادا لمناقبه و تقريضا لمؤلفاته .و هو في كل هذا يبدو مقتديا بالإمام السيوطي. وقد بقي في جل ما ذكر مركزا على ضمير المتكلم الجمع ،كما أنه لم يثبت من القصائد إلا ما ذكر فيها اسمه صراحة. من نماذج ذلك قوله : << فمن ذلك تقريض شرحنا المسمى بـ" الآيات البينات في شرح دليل الخيرات " و هو قوله رحمه الله :

هنيئا لكم بشرحكم للدلائل فحزتم به على فحول الأوائل
لقد أسبكت أنظاركم فقرا به فأزرى بدر في نحور الحلائل
و لما أفضتم سلسبيل علومكم أجدتم و جدتم دون سؤل لسائل
و جلتم بميدان المباحث فاعتلت سيوفكم على طوال الحمائل
أبا راس فافخر فالفخار متوج على رأسكم حزتم عميم الفضائل

و مما مدح به رحمه الله كتابنا المسمى بـ"الدرة الأنيقة في شرح العقيدة" [14] قوله:

لله درك في نظم العقيق بما أبرزت من درر حارت له النظما
ما أحسن الدر و العقيق إذ نظما في سلك حسن يفيد الحسن للعظما
و ليس مستغربا لطيفة منكم فكم لكم من مزايا أعجزت علما
ففي **أبي راس** الهمام قد جمعت له المكارم في سما المعالي سما

و قال أيضا :

أنا له و إياك ذو المعالي من له وعر العلم كالوطايا
فإن تجئ له بمعضلات كشف عنها الران و الغطايا
ذاك **أبو راس** ناصر الدين الناصري طلاع الثنايا

و لوالده المذكور في شرحنا الكبير المسمى بـ " الحلل الحريرية ،في بيان المقامات الحريرية " – لله دره من فصيح ، و ما أبلغه في كل علم رجيح ما نصه:

أيا مقامات الفتى الحريري بشرى لكم بحلة الحرير
نسج الأديب اللوذعي الفاضل الناصري هبة النصيري
ذاك **أبو راس** أخو المزايا حق إليه الجد في المسير [15].

و هكذا يتجلى بوضوح أن الشعر في العهد العثماني ، بقي ملازما لفن الرحلة الجزائرية على غرار الرحلات العربية عموما ، و هو ما يؤكد أنه بقي محافظا على مكانته كما كان من قبل ، باعتباره وسيلة إقناع و توجيه في يد مثقفي العصر ، بل إنه << يجسد مرجعية ثقافية أساسية لا غنى عنها لهذا المثقف من جهة ، و للمتلقي القارئ من جهة ثانية >> [16].

إن هذا الإعجاب بالذات الذي يصل إلى حد الانبهار بها كما أسلفنا ، و الذي تجسد من خلال عملية الانتقاء للنماذج الشعرية و النثرية على السواء ، و التركيز على إبراز الأنا ، لا يمكن أن يكون قد أتى من فراغ و دون أسباب ؛ فنحن لا نشك لحظة أن للتركيبة النفسية المرتبطة بطبيعة الحياة التي عاشها أبو راس ، و هي حياة فقر مدقع ؛ إذ المعلوم أن أبا راس مشى حافيا ، و عاش طفولته خادما مقهورا متسولا ، لا يجد ما يسد به رمقه ، و هي أمور كلها أشار لها صراحة في " فتح الإله و منته " [17]

.كل ذلك كان وراء هذا الإصرار ، خاصة أن الرجل انقلب حاله ، فذاع صيته ،و اشتهر بعلمه في المشرق و المغرب ، بعد أن لم يكن شيئا يذكر لقد ظهرت الشخصية المركزية بصورة الشخصية العلمية الموسوعية ، المستنيرة المطلعة على كتب متنوعة . و على خلاف علماء عصرها ،لم تعتمد على النقل بل تعدته في بعض الأحيان إلى إشغال الفكر و تحكيم العقل ، يتجلى ذلك في ردها في أثناء نقاش حول قوله تعالى : ﴿ **إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ** ﴾ [18] عمن قال لها ، أعني الشخصية المركزية التي هي شخصية المؤلف ، فما تقول أنت ؟ فقال له : أما الكلام بالنقل فلم يكن الآن بذهني منه شيء ، و أما بطريق الفكر و الاستنباط ، و مع الجري على القواعد العلمية فيمكن . فقال : لي استنبط ...[19]. و رغم كل ذلك فان هذه الشخصية لم تتخلص من مخلفات العصر ، الذي القي عليها بظلاله ، فألفيناها في بعض المواطن تؤمن تماما كما يؤمن أهل العصر ، خاصة المتصوفة منهم ، بتحقق نبوءات الشيوخ و الأولياء << و لما ولدت بالموضع حملتني أمي و والدي إلى الشيخ الصالح ، الولي الذي كاد أن يكون كالجيلي [20] ، شيخ بعض شيوخي علي بن موسى اللبوخي ، أحد صلحاء أرض اليعقوبية ، فبارك علي ، و أخبر بغيب خوارق و عادات ، تكون لي مودات : من علم و صلاح ، و غنى و حفظ و إصلاح ، و شيخ طلبة ، و لفيف و درس و خطابة ، و قضاء و تصنيف ، فكان كما قال في إشارته الغيبية و مقالاته الصادقة >> [21].

و في هذا الكلام اشارة ولو خفية ، إلى أن ما وصل إليه ما كان ليكون لولا بركة هذا الشيخ ، و مثل هذا الاعتقاد سيطر على عقول الكثيرين في العهد العثماني ، ليس من العامة فحسب، بل من خاصة القوم ، من رجال السياسة و العلم ، و يكفي تأكيدا لذلك الإشارة إلى أن محمد بن ميمون صاحب التحفة المرضية ، أشار إلى مثل هذا الاعتقاد في أول مقامة من المقامات التي كتبها ليخلد بها سيرة محمد بكداش، حين أشار أن والده تنبأ له بالحكم و الإمارة بقوله :<< فأوصى مولانا حين كان صغيرا أن ابني هذا على المغرب سيكون أميرا ، و حقق الله به قوله و كمل فيه مرغوبه و سؤله ... >> [22].

الأكيد أن الشخصية المركزية لا يمكن أن تأخذ هذه الصفة إلا بوجود المقابل ؛ إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال، أن تتحرك على مسرح أحداث الرحلة منفردة ،بل لا بد من وجود شخصيات مرافقة لها، و أخرى تلتقيها في طريقها ، و أخرى تنزل عندها حين وصولها، فيحدث بينهما التواصل و التفاعل، اللذان يعتبران من أهداف الرحلة، سواء تم التصريح بذلك أم لم يتم .

و لما كنا قد أطلقنا نعت الشخصية المركزية على المؤلف " أبي راس " و انطلاقا من أن << تميز الشخصية بالمركزية يحيل على و جود الشخصية الثانوية >> [23]، واستنادا على حتمية التقابل التي تفرضها نواميس الحياة ، فإن منطق الأمور يفرض علينا أن نبحث عن الشخصية أو الشخصيات الثانوية في هذه الرحلة ، و لا شك أن طبيعة هذه الرحلة ، باعتبارها رحلة علمية، ألفها رحالة عالم متميز بنظرة خاصة للحياة من حوله ، ستجعلنا نتعامل مع شخصيات من نوع خاص ، شخصيات من نمط واحد ، لم يأبه مؤلف الرحلة بوصاف مظاهرها ، و لا بتحليل نفسياتها ؛ فلا حديث عن هذه الشخصيات ، إلا فيما يتعلق بالجانب العلمي فيها ، ما عدا ذلك لم نجد له أثرا إلا في بعض الإشارات السوسيولوجية البسيطة ، التي تتعلق بالوضع الاجتماعي للشخصية المركزية ، و ما عاشته من فقر ، فيما يبدو أن الخوض فيه مظهر من مظاهر السيرة الذاتية في الرحالة .

و الغريب عند مؤلف الرحلة، أنه لم يشر إطلاقا إلى شخصيات مرافقة للشخصية المركزية ، التي ظهرت في هذه الرحلة وحيدة لا مرافق لها ، و هو ما يخالف المنطق ،كما يخالف في نفس الوقت الواقع ، الذي كان يفرض و جود الرفيق ، خاصة أن الأمر يتعلق بالعهد العثماني و ما يتميز به من اضطرابات ، تجعل الرحلة منفردا عبر محطات متباعدة أمرا مستحيلا . و هنا نعود إلى ما أشرنا إليه من قبل ، فيما يخص التركيبة النفسية لمؤلف الرحلة و الممثل لشخصيتها المركزية ، التي تتحكم فيها ظاهرة الاعتزاز بالنفس ، و حب التميز و تضخيم الأنا ، و هي الأمور التي يبدو أنها كانت وراء إلغاء الشخصيات المرافقة له في رحلته الفعلية ، عندما لفظ أحداثها و نقلها إلى نص ، رغبة منه في أن يظهر في صورة البطل الأوحد . و على هذا الأساس جاء حديث الشخصية المركزية في هذا الباب " في رحلتي للمشرق و المغرب و غيرهما " بضمير المتكلم المفرد ، و المعلوم أنه << في حالة التعبير من قبل الشخصية المركزية بضمير المتكلم المفرد ، فهو نفي للآخر- حتى و لو كان موجودا- و بالتالي هو استئثار بسلطة الكلام >> (24) و انفراده بدور البطولة، و في مثل هكذا وضع، يصبح الآخر يظهر دوما في مرتبة أدنى من الشخصية المركزية، و هو ما تجسد فعلا من خلال صورة هذا الآخر في الرحلة، و التي أظهرته في الغالب في موقف الساعي لإكرام الشخصية المركزية و المعترف بفضلها و تفوقها، خاصة فيما يتعلق بالمستوى العلمي، من خلال المناظرات و المناقشات العلمية التي طغت على الرحلة من بدايتها إلى نهايتها . وهو ما يبرزه الجدول التالي :

العالم المشارك في النقاش والمناظرة	القضية المطروحة	النتيجة على لسان الشخصية المركزية	الصفحة
الشيخ القاضي المفتي محمد بن جعدون	معنى قول المصنف *ومن قوته إلا دون إلا لشح *	سلم وطاب خاطره	91
الشيخ محمد بن مال مع جمع من العلماء	أسئلة صعاب عظيمة من جمعيهم	رفعوا قدري وبجلوا أمري	91
السيد عبد الرحمان البدوي القرومي	سأله أبو راس أسئلة : فقهية أصولية نحوية لغوية توحيدية.....	بهت ولم جب بشيء	92
الشيخ السيد محمد بن الحفاف	إعراب : العبد الفقير المضطر لرحمة ربه .	اعترف لي .	95
أبو العباس الشيخ أحمد العباسي	استحباب صوم * رجب*	فسكت	100
الشيخ الطيب بن كيران رفقة مجموعة من علماء فاس	حكم قول * صحة * لمن يشرب	اعترفوا بفضلي وبصحة نقلي وعقلي	103 104
الشيخ السيد محمد بن المحجوب	قضية حضانة	فرجع إلى قولي وأصبح يشاورني	109
بعض علماء تونس	حكم الجمعة للمسافر	أتوني بعشرة شواش فائقات وسألوا مني الدعاء	117
مفتي الرملة وبعض علماء فلسطين	القهوة والدخان ومسائل أخرى	اعترفوا لي بالفضل والعلم وأكرموني	120

و قراءة هذا الجدول توصلنا إلى :

1- أن مؤلف الرحلة لم يركز إلا على ما يلمع الشخصية المركزية ، لكنه بقي في نفس الوقت محافظا على قدسية العالم حتى لو أبرزه في صورة الشخصية الثانوية ؛ فذكره للعلماء جاء دائما مقرونا بعبارات التبجيل و الاحترام ، بنفس الصورة التي نجدها عند غيره من معاصريه .

من ذلك قوله في محمد بن الشاهد أحد علماء الجزائر : << العلامة الفهامة ، الدراكة الأديب ، الذي في كل علم له أوفر نصيب ، و رعى فيه مرعى خصيب ، وأخذه بالفرض و التعصيب ، زائد الفوائد ، عذب الموارد ، حجة الغائب و الشاهد ، السيد الحاج محمد بن الشاهد ، عالم الجزائر و عاملها و قطب رحاها ، وشمس ضحاها ،فقيه علامة، حافظ بارع، نظار، مفت، مدرس، قدوة، أسوة أصيل، جليل ، نبيل، نزيه فقيه..>> [25].لكنه في بعض المواقف الناذرة، يبدي التذمر و عدم الرضا، فيصدر منه ما لا يليق حتى و لو عبر عنه سرا، كقوله في بعض علماء تونس ، أثناء نقاش حول صلاة الجمعة << فقلت يندب للمسافر الذي لم يجب عليه حضورها إذا لم تشغله عن حوائجه، فصاحوا و نكصوا و ردوا علي كلامي و أكثروا ملامي. و قالوا: من قال هذا؟ فقلت:أعندكم شرح الخراشي الصغير؟ قالوا:كلنا عنده ، فقلت في نفسي إسرارا هؤلاء « كمثل الحمار يحمل أسفارا» ...>>[26].

2- أن القضايا العلمية المطروحة كانت متنوعة ما يدل على موسوعية الشخصية المركزية .

3- أن جميع الشخصيات هي شخصيات علمية ، من الفقهاء ، و العلماء ، و القضاة ، و الأدباء ، يذكرها و لا يطنب في التعريف بها أو وصفها إلا ناذرا .

4- لا أثر لأي حديث عن الشخصيات السياسية أو العسكرية ، ما يعني ابتعاد الشخصية عن دوائر الحكم و دواليب السياسة. و الاستثناء الوحيد هنا صنعته شخصية الباي محمد الكبير ، الذي يبدو أنه من المعجبين به و بمشروعه ، و قد أشار إلى علمه ،كما أشار إلى الجانب السياسي و القيادي فيه فهو << الملك الأصيل ، الذي كرم منه الإجمال و التفصيل، الرفيع الشأن، السيد محمد باي بن عثمان ، أخلص الله جهاده ، و يسر في قهر أعداء الدين مرادهبأبسط العدل و الأمان ، قابض اكف العدوان الجميل النوال ، المتكفل بحفظ النفوس و الأموال ، قطب الجد و سماكه، محل الحمد و ملاكه ، الحافل العادل ، الفاضل الكافل ، الكانل الأصيل ، هازم أحزاب العاندين و جيوشها ، هادم الكنائس و البيع« فهي خاوية على عروشها » ، الشهير الخطير الرفيع المجاهد المرابط .....>> [27].

5- أن جميع الشخصيات التي ظهرت على مسرح أحداث الرحلة لا تتحرك و لا تعبر عن ذاتها و لا نرى صورتها إلا من خلال عين الشخصية المركزية .

الهوامش:

(1)- خليل شكري هياس ، سيرة جبرا الذاتية في (البئر الأول و شارع الأميرات) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2001، ص:12.

(2)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق ، ص: 52.

(3)- ينظر تهاني عبد الفتاح ، السيرة الذاتية في الأدب العربي فدوى طوقان و جبرا ابراهيم جبرا و احسان عباس نموذجا ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط 1 ،2002 ص: 70.

(4)- محمد أبوراس ، المصدر السابق ، ص:136.

(5)- نفسه ، ص: 20.

(6)- محمد أبوراس ، المصدر السابق، ص، ص: 21 .22 .

(7)- محمد أبوراس ، المصدر السابق ، ص: 117.

(8)- نفسه ، ص: 16.

(9)- سورة النجم ، الآية 32.
(10)- المقصود كتاب " نسيم الرياض ، في شرح شفاء القاضي عياض ، لمؤلفه شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المتوفى في العام 1069ه .
(11)- هو أبو العباس أحمد بن بابا بن أحمد بن عمر محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحي ، أحد علماء المالكية ، المعروف بأحمد بابا التنبكتي (1036/963ه – 1556/ 1627م هو صاحب كتاب " نيل الابتهاج في تطريز الديباج " الذي اختصره و هذبه و جعله تحت عنوان " كفلية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج "
(12)- محمد أبوراس ، المصدر السابق ن ص؛17 .
(13)- محمد أبوراس ، المصدر السابق ، ص؛ 69.
(14)- قصيدة مطولة للشاعر الجزائري سعيد عبد الله المنداسي التلمساني (توفي 1088ه) تقع في 303 بيتا ، و هي من الشعر الملحون اعتبرها كثيرون رحلة شعرية.
(15)- للوقوف على نماذج أخرى ينظر، محمد أبوراس ، المصدر السابق ،ص؛ 66 و ما بعدها .
(16)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق ، ص؛ 56.
(17)- ينظر تفاصيل ذلك في باب : " ابتداء أمري " و كذلك ترجمته ، في تاريخ الجزائر الثقافي ، ص؛ 390 و ما بعدها .
(18)- سورة المائدة الآية 29.
(19)- ينظر ، أبوراس المصدر السابق، ص؛93.
(20)- هو سيدي عبد القادر الجيلاني الزاهد المتصوف صاحب الطريقة القادرية المتوفى في العام 561ه
(21)- أبو راس ، المصدر السابق ، ص؛19
(22)- محمد بن ميمون ، المرجع السابق ، ص ؛115.
(23)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق ، ص؛234.
(24)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق ، ص؛236
(25)- محمد أبو راس المصدر السابق، ص؛ 96 .
(26)- نفسه ، ص؛ 117.
(27)- نفسه ، ص؛ 100.